مهرجان وفاء النيل

وخطأ المحكمة الشرعية العليا

١

النيل اصل كل خير في مصر، ولولاهُ لما كانت شيئاً مذكوراً. لذلك قدسهُ قدماء المصريين وألّهوهُ ثم عبدوهُ وقربوا لهُ القرابين. فلما جاءت دولة الاسلام احتفظت لهُ بمكانته من الاجلال والاحترام، ولكن لا على سبيل التأليه والعبادة، كما كان مقرراً على عهد الفراعنة

فكانت جميع الدول الاسلامية، منذ مجيء عمرو بن العاص الى الآن، تحتفل بالنيل احتفالاً باهراً في كل عام لدى الفيضان، وكان ذلك منذ اعاد عمرو بن العاص احتفار الخليج، على ما سنذكرهُ بقليل من التفصيل

فكانت الحكومة تحتفل يوم الوفاء احتفالاً رسميًّا وشرعيًّا، كان رونقهُ متابعاً لحالة الدولة من اليسر والرخاء او البؤس والشقاء، ومناسباً لمكانتها السياسية بين الامم

ولقد وصلت هذه الحفاوة الى منتهاها، على عهد الخلفاء الفاطميين وملوك الايوبيين وسلاطين المماليك

يحدثنا التاريخ بان الخليفة او الملك او السلطان كان ينزل من مقرهِ في القصر الكبير في الحيّ المعروف الآن بخط النحاسين، او من دار الملك بقلعة الجبل، ثم يأتي بموكب تحوطهُ الجلالة وتطيف بهِ العظمة والابهة حتى يصل القسطاط فيعدي الى دار المقياس بجزيرة الحصن المعروفة الآن بجزيرة الروضة. وقد كان بعض الخلفاء يركب متن العشاري (اي الذهبيات) ويجيء في موكب بحري بديع الى تلك الدار

هنالك ينزل رب العرش بنفسهِ الى عمود المقياس الذي بناهُ المتوكل العباسي (والذي لا يزال باقياً الى الآن) فيخلّقهُ، أي يغسلهُ بيدهِ بالخلوق والطيوب والعطور. ثم يخرج الى موضع الاحتفال المعهود الى يومنا هذا ويأمر بفتح السد فتنطلق المياه والزواريق في ذلك الخليج

كان ذلك اليوم من ايام القاهرة المشهورة بل من اجلّ مواسمها المعدودة

بقي الحال على هذا المنوال حتى جاءت الحملة الفرنسوية في اوائل القرن الماضي.

فاحتفل به الخديو توفيق على الرسم المعهود والطراز المألوف وأضاف الى الاحتفال شيئاً جديداً هو اطلاق الصواريخ النارية على المثال الذي بقي الى الآن

حتى اذا جلس على عرش مصر سعيد حياتها وتجدد شبابها المرحوم محمد علي باشا الاكبر ، جرى على سنة الملوك والسلاطين في الاحتفاء بهذا الموسم الجليل

غير ان خلفاءه قد اهملوا الاشراف بانفسهم على هذه الحفلة فتضاءلت عما كانت عليه . ولا سيما منذ ايام الخديو محمد توفيق تغمده الله بالرحمة والرضوان . وقد بقي الحال على هذا المنوال الى الآن فكان الجالس على عرش مصر ينيب عنه في التصدر بهذه الحفلة رئيس نظاره (وزرائه) بل احد اولئك النظار بل محافظ القاهرة

كانت الدولة تنعم بالخلع الغالية على بعض الرجال الرسميين . ولكن هذه العادة تضاءلت في عصرنا هذا حتى نزلت الى مبالغ نقدية طفيفة . وهذا بيانها في ما نعلم هنا :

مليم	جنيه مصري	
٩٦٠	١٤	لصاحب الفضيلة الشيخ حسن البنا رئيس المحكمة الشرعية العليا
٩٨٠	٠٦	« « « مصطفى سلطان وكيل « « «
٨٥٠	٠٢	لحضرة السيد عباس الزرقاني باشكاتب المحكمة الشرعية العليا
٨٥٠	٠٢	« حسين افندي الحفناوي بكرتير « « «
١٤٠	٠٢	لعبد المجيد افندي رشوان الكاتب في « « (بصفته شاهداً)
١٤٠	٠٢	للشيخ عبد السلام عبد الخالق « « « « « «
٩٢٠	٣١	

وهذا المبلغ لا يكاد يذكر في جانب خلعة واحدة مما كان يخلعه الخلفاء والملوك والسلاطين في الايام الغابرة على رجال اكثر عدداً من رجال العهد الحالي الذين ذكرناهم

أما ما يحصل في العهد الحالي من الاحتفال الرسمي والعامي فهو كما يأتي :

في مرسى السفن الحكومية ببولاق سفينة خاصة بهذه الحفلة ومقصورة عليها ، دون سواها . وهي ضخمة ومصنوعة من الخشب على الشكل القديم وتسمى « العقبة » . فاذا جاء يوم الاحتفال ، خرجت هذه السفينة من مرساها ، مزدانة بالورود والرياحين واغصان الاشجار ، تخفق عليها الرايات والاعلام ، وفيها بعض المدافع ، ثم يجرها رفاص بخاري فتسير الهوينا في النيل ، وتتهادى كالعروس بين الشاطئين ، وتذهب صاعدة حتى تصل الى نهاية الجزيرة ، جزيرة الحصن المعروف الآن باسم « الروضة » فتطوف

حولها . وقد كانت، الى بضع وعشرسنين مضت، تدخل في ذراع النيل الفاصل بين هذه الجزيرة وبين ارض مصر القديمة اي الفسطاط ، ذلك الذراع الذي يعرف الآن باسم « المنيل » وتستمر في سيرها حتى تصل الى مكان الاحتفال الباقي الى يومنا . ومتى انقضى الامر وجرت المياه في الخليج عادت ، سيرها نازلة مع النيل حتى تتم دورتها حول الجزيرة وتعود الى مرساها في بولاق الى العام القابل

بهذه المثابة كانت تلك « العقبة » التي هي عروس النيل تشترك في الاحتفال بوفاء النيل

اما اليوم، فقد تبدلت الاوضاع وتغيرت المعالم . فان تلك العروس تسير بموكبها الجميل وحولها الجاريات الماخرات في النيل . ولكنها لا تذهب الى مكان الجلوة، بل تقف في ليلة زفافها بعيدة عن مكان الحفاوة بها ، فتبيت بها « كالمعلقة : لا هي متزوجة ولا هي مطلقة »

ذلك ان المسيطرين في عهد الاحتلال على شؤون مصر، ولا سيما القابضين على ناصية وزارة الاشغال قد نسوا امر الاحتفال بالنيل، عند ما عملوا حسبتهم المزدوجة لتسهيل المواصلات بين ساحل القاهرة ومصر القديمة وبين الجزيرة . فانشأوا قنطرتين من الحديد (كوبريين) احدهما في شمالي الجزيرة عند القصر العيني وهو المعروف بكوبري محمد علي ، والثاني عند متوسط الجزيرة بالقرب من دار النحاس الشهيرة في ايام الفسطاط (ولا تقولن دير النحاس فانهُ من تحريف العامة في ايامنا هذه) وذلك الكوبري الثاني هو المعروف « بكوبري الملك الصالح » تذكاراً للجسر الذي اقامهُ الملك الصالح نجم الدين الايوبي ليجوز عليه، الى قصره المعروف بالهودج في تلك الجزيرة ، الذي بناهُ لمحبوبته البدوية . وكان ذلك الجسر من مراكب ، مربوط بعضها الى جانب البعض الآخر . وقد ذهبت به الايام كما ذهبت بالهودج وبغيره من القصور التي شادها الامراء والملوك في عهد الايوبيين والمماليك بهذه الروضة الجميلة

كان ذراع النيل المعروف باسم « المنيل » خالياً من الحواجز والموانع والقناطر والكباري التي تمنع السفائن والزوارق من المرور فيه بالبضائع وبمن يقصد النزهة فيه من اهل الترف والنعيم، على ما ادركناهُ

فلما اراد المسيطرون على وزارة الاشغال تسهيل المواصلات البرية باقامة هذين

« الكوبريين » فسوا ما كان واجباً من تسهيل المواصلات النيلية ، ولا سيما امر الحفلة العامة الشاملة التي تقيمها الحكومة والامة في كل عام بوفاء الفيضان . فجعلوا « الكوبريين » المذكورين مصمتين اي ان كلاً من طبقتيهما من قطعة واحدة لا تتحرك ولا تنفتح

نرجع الى وصف الاحتفال

تسير « العقبة » اليوم وحولها الزوارق يدفعها النسيم او يحركها البخار او « البنزين » . وبينما هي تمخر عباب النيل ، يقابلها الرجال على الشطين بالتصفيق ، والنساء بالزغاريد ، « والطبل عمال والزمر شغال » والناس في مرح وسرور . وهي تجاوبهم باطلاق مدافع الفرح والابتهاج ، من ذات اليمين ومن ذات الشمال . وتشترك معها الباخرة التي تجرها فتبعث من صدرها بصفير وحنين ، تقطّعهُ وترجّعهُ بين حين وحين . فاذا سكتت المدافع واذا صمت الصفير ، قامت جوقة الموسيقى العسكرية التي في جوف « العقبة » بترديد الالحان وتشنيف الآذان بالنغمات الحسان

حتى اذا تجاوزت « العقبة » جزيرة العقبة وقفت « كمار الشيخ في العقبة » يحوطها الظلام ويخيم عليها السكوت ويقتاسها الناس . فلا يبقى حولها احد سوى الحراس . وتبيت كذلك مهملة مفردة معطلة ، حتى تطلع انوار الصباح ، فتعود ادراجها بموكبها وبهجتها ومدافعها وموسيقاها الى حيث كانت والى حيث تستقر ، حتى يعود لها يوم الزينة من العام القابل

من هذه الساعة ، اي عند دخول المساء ، ينتقل الاحتفال الرسمي الى مكانه المعهود تحت ظلال الاطلال الباقية من قناطر المجراة التي جددها السلطان الغوري (سقى الله عهده !) لتوصيل مياه النيل الى قلعة الجبل

هنالك السرادقات تخفق فوقها الاعلام ، وقد فرشت ارضها بالابسطة والطنافس والسجاجيد ، وصففت فيها الزرابي والنمارق والارائك (اعني الدكك والكنبيهات والكراسي المذهبة في تعبيرنا الآن) وقد سطعت فيها الانوار بمختلف الالوان . ومنذ العام الماضي حلت الكهرباء محل القناديل والشموع والمصابيح . فامست تلك السرادقات تتدلى فيها ثريات الكهرباء على شكل العراجين التي تختال بها النخيل . وتقام المدافع حول المكان لتدوي بالتحية والتسليم ٢١ مرة عند ما تحين صلاة العصر وعند وصول «العقبة» الى مرساها وعند أذان العشاء وعند مجيء وانصراف النائب

عن صاحب العرش في رياسة الاحتفال

هنالك يجتمع رجال الحكومة القائمون بنظام الاحتفال، لاستقبال المدعوين من اكابر المصريين : الوزراء والعلماء (وفي مقدمتهم شيخ الازهر ومفتي الديار ونقيب الاشراف) والآباء الروحانيين وسفراء الدول الاجنبية وقناصلها واكابر الموظفين والضباط واعيان التجار وارباب الحيثيات وثلة من الموظفين. فيشنفون الآذان بسماع الاغاني وآلات الالحان حتى الساعة التاسعة من المساء

حينئذٍ يأتي موكب النائب عن صاحب العرش (سواء كان رئيس الوزراء كما حصل في هذا العام، ام احد الوزراء ام محافظ القاهرة كما حدث في الاعوام الماضية). يركب النائب عربة من عربات السراي، يستقلها من محطة القاهرة (فيما لو قدم من مصيفه بالاسكندرية خصيصاً لهذا الغرض) او من داره الخاصة (ان كان الوزير لا يزال في القاهرة) او من محل عمله الرسمي (في دار المحافظة) . ويحف به فرسان من الحرس او من البوليس وتطلق له المدافع عند ركوبه وعند نزوله في صيوان الاحتفال . فتقابله الموسيقى بالسلام الرسمي، ويتقدم المدعوون لاستقباله . فاذا استقر به المقام ، جلس على يمينه السادة العلماء وعلى يساره الوزراء (كما حصل في هذا العام) او الاكابر والاعيان

ثم تكتب الحجة الشرعية بوقاء النيل ، ويوقع عليها النائب عن صاحب العرش، وتوزع المبالغ التي تعطى سنوياً بدل الخلعة التي كانت تخلع في هذا المجلس على اربابها. وعند هذه اللحظة يتقدم الفراشون بانواع الحلوى والمرطبات. فيتناول منها النائب والمدعوون. وتكون الالعاب النارية والصواريخ قد ابتدأت تصعد الى اعنان الفضاء ، وتشق اكباد الظلماء ، وتتساقط على اليم، كانها مصابيح نازلة من الجوّ ، او كانها رسائل من الملأ الاعلى الى اهل النيل لتهنئتهم بوفاء نهرهم السعيد . ويكون لبعض هذه الصواريخ حفيف وصفير وشهيق وزفير ، فكانها اوراق الاشجار حركها النسيم وغردت فوقها البلابل والشحارير . وكانت بداية هذه الالعاب في هذا العام وفي الذي تقدمهُ ، وظهور كتابة من نور على اديم الظلماء فيما بين الارض والسماء وفيها تحية للحاضرين والناظرين وهي «مرحباً بكم !». وكان مسك الختام ظهور سطور من نور فيها «كل عام وانتم بخير !». وكان ذلك عند انتصاف الليل . فتناول بعض الضباط والمدعوين الطعام على سكردان (بوفيه buffet) . ثم خرجوا هم والجمهور ، وكل

واحد بهنيء صاحبهُ. وجميعهم مستبشرون بوفاء النيل ، مصدر الخيرات ومورد البركات

اما الامة فلا تزال تشعر في هذه الافراح من الصباح الى الصباح . ولكن الذي رأيناهُ وشاهدناهُ في هذه الاعوام الخمسة الماضية هو ادنى من تلك المجالي التي يقصر الوصف عنها ، على ما ادركناهُ

ولعل ذلك ناشيء عمَّا تعانيه الامة من الازمات المتوالية ، من الوجهتين ، الاقتصادية والسياسية . فانها قلقة البال على ما يخبئهُ لها الغد ، وهي ترى مستقبلها العمراني والسياسي محفوفاً بالظلام الحالك ، بل محوطاً بالمخاوف والمهالك . والله وحدهُ المسؤول في اصلاح الحال وتحقيق الآمال . في الاستقلال الذي يعيد لمصر بهجتها ويعيد لحفلة الوفاء رونقها وبهاءها

***

كتبت هذه الكلمة في وصف حفلة الوفاء لتكون محفوظة للتاريخ الذي يخدمهُ « المقتطف » منذ نيف واربعين سنة

ذلك بان حضرة صديقي الجليل الاستاذ الدكتور صروف احد صاحبي « المقتطف » اطلع على مقالة لي نشرتها في « المقطم » قبل حفلة هذه السنة لاجل تصحيح تاريخي . فاراد ان يكون لها مكان لدى « شيخ المجلات العربية » واعني به المقتطف

تلك المقالة كان لها شأنها في ساعة معينة . ولذلك بادر صديقي الدكتور نمر فنشرها بمجرد استلامها مني . وتلقاها الناس ساعة صدور المقطم الساعة السادسة من مساء يوم الاحتفال ، اي قبل التوقيع على الحجة الشرعية بثلاث ساعات . وكانت المحكمة الشرعية قد احضرت الحجة على المثال العتيق المخالف للحقيقة وللتاريخ

امام هذا البرهان الداحض ، وامام الحقيقة والواقع ، اضطر القوم ، بعد المذاكرة بين الوزراء ورجال الشرع ، في ذلك المجلس الحافل الى تغيير ذلك الاسلوب وحذفوا الجملة التي اشرت عليهم بحذفها وصدرت الحجة في هذا العام موافقة للحقيقة ، ولا غبار عليها كما ستراهُ في ذيل هذا المقال

وإني اجابة لطلب صديقي القديم الدكتور صروف انقل لقراء « المقتطف » صورة تلك المقالة التي نشرها المقطم بعد أن أضفت اليها جملاً وضعتها بين قوسين مربعين

احمد زكي باشا